

قِمْةٌ إسلاميةٌ

قِمْمٌ وليس كمثلهما قِمْمٌ
أشَدُّو بها فيخلق النغمُ
قِمْمٌ سَمَتْ وتضوأت أفقًا
فتبَدَّدَ الإِظْلَامُ والظَلَمُ
قِمْمٌ بها الإسلامُ مُؤْتَلَقٌ
عبرَ الدهور تحفُّهُ القِمْمُ
العالمون بنورها التمسوا
سُبلَ الهدى واسترشد الأممُ
فإذا شددت بذكرها زهواً
طاب النشيد وأشرقَ القلمُ

أبو بكر.. قمة التصديق

قالوا: أسمعُ ما يقول؟
فأجاب: يصدقُ إذ يقول
هو لا يقول سوى الحقيقة، والحقيقة ما يقول
قالوا: تُصدقُ ما يقول، وليس تَعْقِلُهُ العقول؟
فأجاب: إن قد قاله، فهي الحقيقة ما يقول
قالوا: تُصدقُ أنه في ليلة قطع الوهاد..
وطوى السهول، وسار في ليل إلى قاصي البلاد..
وهناك بالأقصى البعيد يوم كل الأنبياء؟
أصدقُ ما قال أنت؟
أجاب: ما بالمين جاء
هو لا يقول سوى الصواب، فلا افتراء ولا ادعاء
قالوا: تُصدقُ كل ذلك؟
قال: حقًا، لا مرأى
صدقْتُ منه حديثُ هذا الغيب يقطرُ بالنقاء
أعودُ أنكرُ منه أن صلى إمامَ الأنبياء
بالمسجد الأقصى، وقد أسرى به ربُّ السماء
مادام قد قال الذي قلتم، فما بالإفك جاء
صدقته فيما يقول، فلا اختلاق ولا ادعاء.

■ ■ ■

هذا هو الصديقُ عنوانُ الصداقة والوفاء
هذا هو الصديقُ ثاني اثنين في غار أضواء
بسنا النبوة مشرقًا رغم التستر والخفاء
هذا هو الصديقُ من ببسالة حمل اللواء
ومضي يردُّ مكائد المتنبئين، مضى يقاومُ في إباء
ويصد ردتهم، يدافع عن حقوق الدين في أسمى مضاء
ويعيد للإسلام وجهًا مشرقًا، يا للبهاء!
هو قمة التصديق أعلاها، فلاحَتْ في جلاء
بقيت على مرَّ العصور شهادة عظمى على صدقِ الإخاء

شعر:

عبد المنعم عواد
يوسف*

* شاعر وناقد مصري، له عدد من الدواوين
منها: «عناق الشمس»، «أغنيات طائر غريب»،
و«بيني وبين البحر».

تمثل الروح العلمية في المنظومات الشعرية

■ تمهيد:

اختار الشعر لنفسه منذ الأزل سبيلا ينأى به عن روح العلم، وأوشك أن يكون حديثا خاصا لإذاعة ما تموج به الخواطر من عواطف وانفعالات، وعلى هذا الأساس تكوّن الذوق العام، فوضع كل ما هو شعري مقابل العلمي، حتى باتت طبيعة الشعر تتحدد بذاتية المبدع، وأضحت علامة فارقة تميزه. وحتى فيما اتصل بالتكرار وتقري معاني السابقين في الشعر عدّ مثلبة وعبثا يسمى في النقد سرقة. وكل ذلك إنما هو إصرار على التفرد والإغراق في الخصوصية، لأن الفن وإن كان يصور فيما يصور روح الجماعة ووجدان الأمة، إلا أنه فردي النوازع، وذاتي التكوين.

ويبدو أن هذه الصفة لازمت الفن عامة منذ مراحل تكوينه الأولى، أو بمعنى آخر، نشأت هذه الصفة في الفن منذ تكوين المجتمعات الأولى، ومنذ بدء تأسيس ثقافتها، وهو أمر يصدق على حال شعر العرب في عصوره الأولى، ومع تقادم الأزمنة حدث نوع من التقارب بين الشعر والعلم في حياة العرب المسلمين، ولوحظ هذا التقارب يبرز بقوة كلما آلت تلك الحياة إلى التطور باتجاه العلم، ولا عجب بعدئذ أن يكون العصر العباسي في حياة العرب المسلمين من أهم الأعصر التي تمثل فيه اللقاء المستمر بين العلم والشعر. ونشأت بضوء ذلك ظواهر مهمة تؤكد هذا اللقاء، أبرزها على الإطلاق المنظومات.



بقلم:
د. أحمد علي محمد

■ ■ عندها تفارب الشعر والعلم في حياة المسلمين

جيد، فقد استحال أكثرها قوالب لفظية وأقوالا علمية، غير أنها عظيمة الفائدة وشديدة الدلالة على الحال العلمية للعصور الإسلامية، وهنا لا بد من التعرض إلى دراسة مضامين المنظومات الكبرى للتعرف على خصائصها وفوائدها:

١ - ذات الأمثال لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ٢١١هـ:

لا شك أن أرجوزة أبي العتاهية المسماة بذات الأمثال من أشهر شعره، فقد قال فيها صاحب الأغاني: «وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال إن له فيها أربعة آلاف مثل. منها قوله: حسبك مما تبغيه القوت...» (١٢).

وقد ورد ذكر هذه القصيدة إضافة إلى كتاب الأغاني في معاهد التنصيص (٢٨٣/٢) وفي شرح نهج البلاغة (٢٣٥/١) وفي عيون الأخبار (١٨٥) وفي محاضرات الراغب (١٤٣/٢) وفي نهاية الأرب (٧٧/٣).. ويبدو أن القصيدة لم تصل إلينا كاملة حسب الإشارة الواردة في كتاب الأغاني «إن له فيها أربعة آلاف مثل» فعدد الأمثال في القصيدة المثبتة اليوم في ديوانه أقل من ذلك بكثير، فقد جمع المحقق منها (٣٢٠) بيتا جاء فيها: (١٣)

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَقْدِيرِهِ
وَحُسْنُ مَا صَرَفَ مِنْ أُمُورِهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بِحُسْنِ صُنْعِهِ
شُكْرًا عَلَى إِعْطَائِهِ وَمَنْعِهِ
يَخِيرُ لَعَلَّهِ وَإِنْ لَمْ يَشْكُرْهُ
وَيَسْتُرْ الْجَهْلُ عَلَى مَنْ يُظْهِرُهُ
وبعد هذه المقدمة التي تستغرق تسعة أبيات يبدأ توالي

الأمثال في القصيدة كقوله:

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ
مَا أَكْثَرَ الْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ
فَكُلْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيكَ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَ

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَجَا وَخَافَا
ومن الواضح أن توالي الأمثال في هذه الأرجوزة يأتي بلا رابطة بين مثل وآخر، فصفا التفكك واضحة هنا، غير أن الشاعر كما أظن أوجد ما يشبه الفواصل بين مثل وآخر، تلحظ ذلك أحيانا في تقديمه المثل بشيء من التمهيد كقوله:

اللَّهُ حَسْبِي فِي جَمِيعِ أَمْرِي
بِهِ غَنَائِي وَإِلَيْهِ قَرِيرِي
لَنْ تُصْلِحَ النَّاسَ وَأَنْتَ فَاسِدُ
هَيْهَاتَ مَا أَبْعَدَ مَا تُكَادُ

وهذا إنما يدل على شيء من الترابط بين الأمثال، ومن المحتمل أن صورة القصيدة الحقيقية أكثر ترابطا عما هي عليه الآن في ضوء اضطراب ترتيب أبياتها وضياح قسم منها كبير.

ربما كان الهدف الأساسي الذي كمن وراء ظهور المنظومات في الشعر الإسلامي هو الحاجة الملحة لحفظ العلوم. أو قواعدها الأساسية، فالذهنية العربية تنزع إلى ثقافة شعرية في الأصل، وفي عهد تفوقها العلمي وجدت في الشعر وسيلة يسيرة على المتعلمين كي يحفظوا في البدء القواعد والمتون اللغوية، لذا سارع العلماء منذ وقت مبكر من عهد الأمويين إلى نظم جملة من القواعد الأساسية في النحو خاصة، ثم اشترك الشعراء بنظم أبنية اللغة، وحولوا قسما من أراجيزهم إلى متون لغوية، وجد فيها اللغويون بعد ذلك مادة لبحوثهم كما هو الشأن عند العجاج على سبيل المثال.

حتى إذا ما نشطت حركة العلم والتأليف والتعليم في العصر العباسي وجدنا كثيرا من الأدباء يتهافتون على النظم، وكان من نتيجة ذلك أن انحرف قسم من الشعر عن طبيعته، وباتت الصلة بينه وبين العلم أوثق. أو قل إن شئت إن طائفة من الأدباء المسلمين أثروا الإسهام فعليا في حركة العلم الواسعة، التي بدت سماتها تظهر بوضوح في العصر العباسي. وهذا التوجه الجديد إنما هو حالة تعكسها تلك الحاجة في نفوس العرب المسلمين إلى كل ما هو علمي، بعد أن كان شغلهم الشاغل الأدب والتغني بالوجدان، وقد يكون دعوة القرآن الكريم إلى العلم والتعليم. فلو نظرنا إلى كلمة (علم) وما يتفرع منها لوجدنا أنها من أكثر الكلمات تكرارا في القرآن الكريم.. وهذا بحد ذاته حافز للعلم والتعلم. أضف إلى ذلك حالة الاستقرار النسبي الذي آلت إليه حياة المسلمين في الأمصار، بعد توقف حروب الفتوح، وإطلاعهم على ذخائر الأمم المغلوبة وكنوزها في العلم والمعرفة.

■ ■ ■ المنظومات

عرف شعر النظم منذ وقت مبكر من العصر الأموي كما ذكرنا قبل قليل، وقد ظهرت قصائد تعنى بجمع ألفاظ اللغة، وتقيد بعض قواعد النحو، لغرض تعليمي ثم تطور النظم ليغدو فيما بعد سجلا للحوادث التاريخية وقواعد العلوم المختلفة، فمن المنظومات التعليمية أرجوزة إسحاق بن خلف البهراني (١) وأرجوزة الكسائي (٢) في النحو، ومن المنظومات العلمية التي صاغت ضروبا من العلوم قصيدة الحكم بن عمرو البهراني في الحيوان (٣)، وقصيدة أبان اللاحي في حكم الهند (٤)، وله قصيدة أخرى في نظام الكون سماها ذات الحل (٥)، وقصيدة لإبراهيم بن حبيب الفزاري في علم النجوم (٦)، وقصيدة للجرمي في التاريخ (٧)، وقصيدة لعلي بن الجهم في بدء الخليقة (٨)، وقصيدة لابن المعتز في أحداث عصره (٩)، وأرجوزة لأبي العتاهية في الحكمة والموعظة (١٠)، وأرجوزة لابن سينا في الطب وفي النفس (١١)، وفي العصور اللاحقة ظهرت منظومات كثيرة لا يتسع المجال هنا لذكرها.

والمنظومات عامة كما يقول الباحثون لم يتأت فيها شعر

■ المنظومات نحل على الحالة العلمية للعصور الإسلامية

فيه. يقول في خاتمة قصيدته:
وكان في العشرين من ولاتها
من آل عباس ومن حُماماتها
فنحن في خلافة مُباركة
خلت عن الإضرار والمشاركة
فالحمد لله على إنعامه
جميع هذا الأمر من أحكامه
ثم السلام أولاً وآخرها
على النبي باطناً وظاهراً

وابن الجهم في سرد أحداث التاريخ بهذه الصورة الموجزة إنما يسجل خلاصة هذه الأحداث وما هو مشهور منها، ولا شك أن هذه الأرجوزة عظيمة القيمة في اختزالها الأحداث المشهورة منذ بدء الخلق وحتى زمنه، فذكر خلق آدم وحواء وإقامتهما في الجنة ثم اغترارهما بابلوس وهبوطهما منها، ثم تحدث عن رحلتها في الحياة وإنجابهما، وخبر ولد آدم، وخبر الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى لبني آدم، وذكر شيئاً من أخبار الفرس والروم وأيام العرب قبل الإسلام. وفصل في تاريخ المسلمين بدءاً بحياة الرسول الكريم ﷺ وانتهاء بخلافة بني العباس.

وتتميز هذه القصيدة عن سابقتها بالترابط والتسلسل بحكم موضوعها التاريخي. ويستطيع القارئ ملاحظة اهتمام ابن الجهم بتفصيلات التاريخ الإسلامي في القصيدة، في حين أنه أوجز القول في حديثه عن تاريخ الفرس والروم على سبيل المثال، والطريف في الأمر أنه كان يعلل إذا أوجز أو أطنب كقوله:

والفرس والروم لهم أيام
يمنع من تفخيمها الإسلام
وإنما يَفْنَعُ أهل العقل

بكتب الله وقول الرسل
وهذا إنما بين غايته من نظم التاريخ، فتركيزه على تاريخ الأديان وأيام الرسل مؤداه الموعظة والاعتبار.

٣ - المزوجة في أحداث عصر بني العباس:

نسبت هذه القصيدة لعبدالله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ، وقد بلغت (٤١٨) بيتاً في ديوانه، متضمنة أهم أحداث عصره، ويستطيع القارئ أن يلاحظ في هذه القصيدة جانباً من النقد، أو اللوم العنيف، الذي يوجهه الشاعر للذين تلاعبوا بالخلافة العباسية، ومن الناحية الشكلية ينحو ابن المعتز في بناء قصيدته نحو سابقه، فيبدأ بحمد الله تعالى والصلاة على نبيه الكريم: (١٦)

باسم الإله الملك الرحيم
ذي العز والفُدرَةِ والسُلطان
الحَمْدُ لله على آلائه
أحمدُ والحمدُ من نعمائه
أبدعَ خلقاً لم يك فكناً

والأرجوزة بصورة عامة مرضية للذوق، وأشاد بها غير واحد من الأدباء، وحفظت منها أبيات اشتهرت على ألسنة الناس منها:

عَلِمْتُ يَا مُجَاشِعُ بْنُ مَسْعَدَةَ
أَنَّ الشَّيْبَابَ وَالْفِرَاعَ وَالْجِدَّةَ
مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ

وورد في الأغاني أنه قيل لأبي العتاهية: أي شعر قلته أجود وأعجب إليك قال: قولِي: علمت يا مجاشع بن مسعدة، وقولي:

يَا لِلشَّيْبَابِ الْمَرْحِ النَّصَابِ
رَوَائِحُ الْجَنَّةِ فِي الشَّيْبَابِ (١٤)

٢ - المحبرة في التاريخ

تنسب هذه القصيدة لعلي بن الجهم بن بدر الشاعر العباسي المشهور وقد ذكر القصيدة المسعودي في مروج الذهب. وأبو زيد البلخي في البدء والتاريخ (٨٥/٢) وغيرهما. وقد وقعت القصيدة في (٢٣٢) بيتاً مثبتة في ديوانه المطبوع. وقد بدأها بقوله: (١٥)

الحمد لله المعيد المبدي
حمداً كثيراً وهو أهل الحمد
ثم الصلاة أولاً وآخرها

على النبي باطناً وظاهراً
فهذه المقدمة كما هو واضح، شبيهة ببداية قصيدة ذات الأمثال السابقة، وهي غريبة عن مقدمات الشعر المعروفة، مما يدينها من مقدمات الكتب والتأليف، فقد جرت المؤلفات الإسلامية في مختلف موضوعات العلوم على الابتداء بحمد الله تعالى والصلاة على نبيه الكريم، وبعد ذلك يمضي ابن الجهم على منهج المؤلفين في مقدماتهم حيث يذكر موضوع قصيدته فيقول:

يا سائلي عن ابتداء الخلق
مسألة القاصد قصد الحق

أخبرني قوم من الثقات
أولو علوم وألو هيئات
تقدموا في طلب الآثار

وعرفوا حقائق الأخبار
وفهموا التوراة والإنجيل
وأحكموا التنزيل والتأويل

أن الذي يفعل ما يشاء
ومن له العزة والبقاء
أنشأ خلق آدم إنشأ

وقد منه زوجة حواء
ومن الواضح أن ابن الجهم يتكئ على مناهج العلماء في الإخبار فهو يهتم بالإسناد، ويستخدم ألفاظ العلماء في قوله (أخبرني، والثقات) ثم يذكر الحوادث التاريخية ابتداء بخلق آدم عليه السلام وانتهاء بالخلافة العباسية، أو إلى الزمن الذي عاش

■ استفادتنا المنظومات من مناهج العلماء في الأخبار

فهذه من أشهر المنظومات الشعرية في أدبنا القديم، وقد برزت في أثناء عرضها صلتها بالعلم والشعر على حد سواء، أو قل إن شئت إنها ذات قالب شعري ومضمون علمي، وهذا إنما يرشدك إلى أنها ليست شعرا خالصا، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تجاري العلم في دقته وشموله، ولهذا تُعدُّ ملخصات لقواعد العلوم الأساسية، من هنا استبعدها الدارسون عن دائرة الشعر، لأنها تخلو من عناصره الأساسية المتمثلة بالخيال والعاطفة والانفعال، وهذا لا يعني أنها عديمة الفائدة، ففائدتها علمية كما رأيت، ومنهجها قريب إلى منهج العلم، وقد بنيت على هيئة الكتب في التقديم والعرض والختام، ولهذا وجدنا ابن سينا في قصيدته السابقة يقول: لنختم الآن الكتابا.. يعني منظومته.

ولا شك بعد هذا أن المنظومات كانت حاجة دعت إليها أحوال العصر العباسي العلمية، فهي ليست كما يجمع الباحثون ناجمة عن تأثر العرب المسلمين بما شاع من نظوم في آداب الشعوب الأخرى فحسب، وإنما برزت هذه المنظومات نتيجة تحول طرأ على الحياة الإسلامية واستجد في الأذواق، ومن يستعرض النتاجات الشعرية العربية الإسلامية منذ صدر الإسلام وحتى بداية العصر العباسي يجد أن حركة الشعر عامة بدأت تنحرف شيئا فشيئا باتجاه النثر، وما إن انتهى الأمر إلى الأدباء العباسيين حتى وجدنا كثيرا من النقاد والمفكرين يدعون الشعراء إلى احتذاء أساليب النثر في أشعارهم، وهذا التحول إنما حدث بتأثير القرآن الكريم في النفوس، لأنه أقرب في صورته إلى النثر كما يذهب المرزوقي في مقدمة شرح الحماسة، ولهذا بدأ النقاد يعون تفوق الأشكال النثرية على الشعر. يقول المرزوقي: «ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم أن الإعجاز من الله تعالى جده والتحدي من الرسول عليه السلام وقعا فيه دون النظم.. فلما كان زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة والبيان، جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به وبأشرفه، فتحداهم بالقرآن كلاما منتورا، لا شعرا منظوما» (١٨) ومن هنا نفهم دعوة ابن طباطبا الشعراء إلى احتذاء نماذج النثر ولا سيما الرسائل، من حيث تدرج معانيها وحسن تتابعها وحلاوة إخراجها، يقول: «فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المدح، ومن المدح إلى الشكوى، بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلا وممتزجا معه» (١٩).

وهذا إنما هو إقرار لتقريب المسافة بين الشعر والنثر خاصة وبين الأدب والعلم عامة، لأن النثر هو وعاء العلم، ومن هنا انصاع قسم من الشعر من حيث موضوعاته ليستوعب جانبا من العلوم، وبذلك عبّر عن انتماؤه إلى عصره قبل كل شيء، خصوصا أن السمة العلمية كانت غالبية على ملامح الحياة الإسلامية في العصر العباسي.

ولا ننكر بعد ذلك كله صلة المنظومات الإسلامية بما كان

وَأَظْهَرَ الْحُجَّةَ وَالْبَيَانَ
وَجَعَلَ الْخِاتَمَ لِلثَّبُوتِ
أَحْمَدَ ذَا الشَّفَاعَةِ الْمَرْجُوءِ
الصَّادِقَ الْمُهَذَّبَ الْمُطَهَّرَا
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا فَاكْثُرَا
ثم يذكر ابن المعتز كثيرا من الأحداث الناجمة عن سوء الإدارة العباسية في أيامه مثل قوله:
قَامَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ لِمَا ضَاعَا
وَكَانَ نَهْبًا فِي الْوَرَى مُشَاعَا
مُذَلَّلًا لَيْسَتْ لَهُ مَهَابَةٌ
يَخْضَعُ إِنْ طَنَّتْ بِهِ دُبَابُهُ
وَكُلَّ يَوْمٍ مَلِكٌ مَقْتُولٌ
أَوْ خِثَائِفٌ مُرَوِّعٌ ذَلِيلٌ
أَوْ خَالِعٌ لِّلْعَقْدِ كَيْمًا يَغْنَى
وَذَاكَ أَذْنَى لِـلرَّدَى وَأَذْنَى
وَكُلَّ يَوْمٍ شَغَبٌ وَغَصَبٌ
وَأَنْفُسٌ مَقْتُولَةٌ وَحَرْبٌ
وَكَمْ فَتًى قَدْ رَاحَ نَهْبًا رَاكِبَا
إِمَّا جَلِيسٌ مَلِكٌ أَوْ كَاتِبَا
فَوَضَعُوا فِي رَأْسِهِ السَّيَاطَا
وَجَجَعُوا يَرْدُونَهُ شَطَاطَا
وَكَمْ فَتَاةٌ خَرَجَتْ مِنْ مَنْزِلٍ
فَغَصَبُوهَا نَفْسَهَا فِي الْمَحْفَلِ
وتمضي هذه القصيدة على هذا النحو مصورة ما آلت إليه الحياة العربية من فوضى واضطراب على المستويات كافة.

٤ - القصيدة المزدوجة في المنطق:

هذه القصيدة من نظم الشيخ الرئيس ابن سينا. وقد تحدث فيها عن آلة علم المنطق وألفاظه المفردة والألفاظ الخمسة ومقولاته العشر وقضاياها وفي النقيض والعكس والقياس والاستقراء والتمثيل والمقدمات والبرهان والمطالب وتحدث عن الجدل والخطابة والشعر والمغالطة والحدود. وقد وقعت القصيدة في (٢٩٨) بيتا، وقد بدأت القصيدة بمقدمة شأنها في ذلك شأن المنظومات الأخرى. ذكر فيها ابن سينا بعد حمد الله والصلاة على نبيه الكريم غايته من القصيدة قائلا: (١٧)

وهذه الآلة علم المنطق

منه إلى جل العلوم يرتقي

ميراث ذي القرنين لما سالا

وزيره العالم حتى يعمل

ثم يشرع في التفصيل في قضايا علم المنطق، ويختتم قصيدته بقوله:

فلنختم الآن الكتاب ختما

فقد نظمنا العلم فيه نظما